

فلسفة الشعر

من السهل كتابة مجلد حاشد بعشرات المسائل التي تشملها فلسفة الشعر فان الاسهاب في هذه الابحاث أهون من الاقتضاب، وليس من الميسور أن يتناول المتأمل المدقق في فراغ ضيق محدود الاقطاعاً يسيرة معدودة : وهذا ما أحاوله في هذه الكلمة الوجيزة الشعر في حقيقته لغة الشعور وتصويره، ولكنه ليس بلغة الشعور السطحي أى أنه يعبر عما وراء المظاهر الواقعية - وهو في جماله المستحب إنما يعبر بلغة الانسانية في طفولتها، وبلغة الوجدان التي لا يسيطر عليها العقل . بيد أن العقل الانساني في تطور عظيم وفي نضوج مستمر على حساب سواه من المواهب العسية، ولذلك يواجه الشعر بتعاقب الأجيال خطر المنطق وسيطرته، ومحاولة الحقيقة العلمية أن تسود الحقيقة الشعرية ولغة الانسانية في طفولتها متصلة بالأساطير والخرافات والتعاليل الساذجة وبالروعة من مظاهر الطبيعة وتفاعيلها، وهذه تكسب الشعر محة جملة لان كل هذه الاشياء متصلة بالشعور والعقيدة الدينية التي هي بمثابة عواطف مركزة، ونحن نقول الشعر بعواطفنا ويتصل فمنا به عن سبيل العواطف، ولذلك نميل الى نعت هذا النوع من الشعر بالشعر الصافي .

ولغة الانسانية في رجولتها النامية في هذا الزمن وفيما بعده هي لغة المنطق والركاء والفلسفة العلمية والحكمة وما إليها ولذلك لا نميل إلى اعتبار الشعر الذي قدحه هذه اللغة لنا شعراً صافياً ونراه بعيداً عن الموصف والوجدان :

على أن هناك محاولات جديدة في العهد الاخيرة ترى إلى الجمع بين الصورتين بحث قترع تفحات العاطفة ثمار العقل عند التعبير الشعري . ومعنى هذا أن تتحول الفلسفة والحكمة والعلم إلى إيمان صادق في نفس الشاعر فتتمثل في شعوره وظلمه وهذا لن يكون بطبيعة الحال تعمداً عن طريق الصناعة، وإنما يكون حيث يوجد الشاعر الذي له بطبيعته وترتبه هذه النزعة فتصير عواطفه وإيمانه وعلمه وفلسفته وحدة تكاد لا تقبل التجزئة

فأما مثال « الشعر الصافي » فتجده عند أبي نواس وابن خفاجة وشلي وكيثس وورد زورث مثلاً وأما « الشعر العلى المنطقي » فأظهر أمثله بيننا شعر الاستاذ الزهاوى . وأما شعر العاطفة الفلسفية التي تقدم لك احساساً صادقاً متمزج فيه نوافع الوجدان بأحكام العقل امتزاجاً شائناً مقبولاً ففي أمثلة مختارة من شعر أبي العلاء

المعري وشعر المتنبي وإميل أخلد الأمثلة لتلك دالية أبي العلاء المشهورة
وفي رأيي أن هذا النوع الأخير من الشعر لا يقل سمواً عن « الشعر الساذج
الصافي » ؛ وربما جاز لنا أن نعدده أسمى أنواع الشعر ، بل شعر المستقبل . ولما كان
الشعر (كالأدب عامة) هدفاً للحياة لم يكن من الغرابة ولا من المجازفة أن هدم هذا
الرأى حينما نلاحظ متجه التطور للعقل الانساني

وبين أعلام أدبائنا من لا يرضيه ظهور هذه النزعة في الشعر الانجليزي وفي الشعر
العربي الجديد ويؤثر الشعر الفرنسي عليهما ، وبينهم من يرى أن الشعر ينبغي أن يكون
قصراً على الطرف واللبو والمداعبة والاستهتار أحياناً ، ولستنا لانعرف ان الحياة هي
هذا وحده ، ولا نرى الشعر الذي يقتصر على هذه النماذج شعراً جامعاً سواء في دوحه
أو مشتملاته . ولا يكفيني أن يكون الشاعر مصوراً ، ولا يرضيني أن يكون حاكياً
وإنما يبغي أن يكون أيضاً خالقاً لمثل أعلى ، وهذا ما ينقله توالاً إلى دائرة الفيلسوف
على أنى - مع اعترافى بذلك - اكرر أن الشاعر الفلسفى النزعة الذى لا تخصص
عواطفه عقله ، والذي يرضى عقله أن يعهد إلى العواطف في أن تعبر عنه بلفظها هو
أسمى الشعراء على الإطلاق

وإذا آمنت معي بهذه النظرية لم تجد مانعاً لأن تهضم الحقيقة الشعرية أية حقيقة
علية . وهذا الاستاذ ترفليان صاحب كتاب (تاميرس - Thamyris) لا يرى ما يمنع
مضم الزراعة والهندسة والطب الخ في الشعر ، فالعبرة في كل ذلك بتأثر عواطف الشاعر
بشكل هذا ثم بطريقة أدائه ، وهل هو يجعل من العالم شعراً ، أم يجعل من الشعر علماً
وهذا شوقى بك نظم كما نظمتنى تربية النحل فكانت قصيدته المشهورة في هذا الموضوع
من أجل وأفس شعره

وكما أن خصب التربة شرط أساسى في مقدمة العوامل لحسن إنتاجها ، أو كما أن
لكل تربة ما هو أصلىح لها من غرس ، فكذلك لا ينتظر أن يثمر أى نوع من الشعر
بدرجة واحدة في كل ذهن ، بل لا عجب إذا رفضته بعض الأذهان . وقبول الشعر هو
أثر نوع من الانحاء ، وليست كل النفوس سواء في التأثر بانحاء معين ، ومن ثم كان
من العدل أن لا تلقى العيب على الشعر وحده إذا لم يكن له أثر محسوس في بيئة معينة
ليس لها الاستعداد الكافى للتأثر به وإن كانت لها القابلية للتأثر بسواه ، فهذه كلها أمور
نسبية ليس من الحكمة والصواب أن تكون موضع الجزم والتخيم
وبما يشرف الشعر أن يمثل بيئته أصدق تمثيل ولا يكون في مجموعه غريباً عنها
ولكن بما يشرفه أكثر أن يمثل في نواح منه الحقيقة الانسانية الشاملة وأن لا يكون
بمجرد مرآة بل روحاً خالقة حافظة إلى جانب ذلك .

وقد أشرت غير مرة إلى « الحقيقة الشعرية »، كشيء يختلف عن « الحقيقة العلمية »، وأراني مطالباً بشيء من التفسير، فأقول إن « الحقيقة العلمية » تختم التعريف الصادق منطقياً وواقعياً، بينما « الحقيقة الشعرية » لا تختم الاصدق الخيال والاحساس . ومن الجائز أن يقول شاعر مريض أو سليم شعراً لا يمكن أن يوافق أبسط مبادئ العلم أو المنطق أو يكون كله شذوذاً عجيباً، ومع ذلك نعد هذا النظم ذا « حقيقة شعرية »، لأنه يعبر بصدق وإخلاص تام عن نفسية ذلك الشاعر في ظروف خاصة، ويمثل حقاً وحدة، العواطف والايمان الذي في له . ومن أجل ذلك أميل إلى الاستعانة بعلم النفس في نقد الشعر فهو أولى من سواء من العلوم الشكلية في تحليل وتقدير لغة النفس وصورها ويميل بعض النقاد إلى النظر في مسألة الانتاج الشعرى نظرة فلسفية، ولا بأس بذلك . ومعظمهم يرى أن الاقلال أنسب للاتقان الغنى في الشعر . أما أنا فأرى الخاص هو أن الشاعر المطبوع مكثراً بفطرته وليس مقلداً، فإذا لم يظهر له شعر كثير فليس هذا مما يناقض نظريتي، بل يكون معناه أن شعره يحول إلى مناقذ أخرى في حياته . فقد يكون لهواً أو رياضة ذهنية أو رقصاً أو عزفاً أو غير ذلك، وهكذا تتخذ قوته الشعرية مظاهر مختلفة وربما لم يكن من سبب لذلك سوى تهيئه النظم وانصرافه عنه لعوامل اجتماعية أو شخصية من شيوخ شعرائنا المطبوعين الذين نبذوا الاحجام شوقاً ومطراً، وهما من أكثر الشعراء إنتاجاً، وكانما المرأة قد ساعدت على انضاج مركز الطبع الشعرى في ذهنيهما، فأصبحا تحت تأثير فسيولوجى لا يهدأ، وهو ذو مستوى خاص في كل منهما لا يضعفه غير الكلال، فلا يفسد قيمة إنتاجها الاكثر مادام ذلك طبيعياً وعندى أن الاقلال المصطنع لا يقل سوءاً وخبثاً عن الاكثر المصطنع، وانما الجمال يكون في إطلاق النفس الشاعرة على سجيتها .

وما دما قد أشرنا إلى الإيحاء وتأثيره فلا بد من كلمة عن لغة الشعر . وخيرها عندى ما تناسب المقام لفظاً وجراً بحيث يكون اللفظ والمعنى وحدة متماسكة في تأدية الاحساس الشعرى ونقله إليك، ولذلك أوثر في كل بيئة الموسيقى الشعرية التي توافقت روحها . ويعلم القراء أنى لست من أنصار اللهجة العامية، ولكنى أرتاح إلى تمصير العربية أو تعريب المصرية بحيث يظهر في أدبنا المصرى روح هذا الوطن الرقيق الوديع وهو ما يمثل شعر البها زهير أصدق تمثيل، وقد يمثل شعر ابن قلاص وابن النيسه وابن نباتة بعض التمثيل وأما الرجوع بنا إلى لهجة العصر الأموى والعصر العباسى فليس من التجديد ولا من انصاف يثبتا في شيء . وأرى يثبتا المصرية الحاضرة متفرجة فلا يمكن تجريد شعرنا العصرى من زوح التفرنج، ولن يخاف ذلك الاكل متصنع يحتذى خداعاً أو جهلاً منه بفلسفة الشعر - وراء الغيرة على اللغة، حينما هو يسىء بذلك إلى لنته وشعره ؟

أحمد زكى أبو شادى